خطبة الجمعة 15/ 12/ 2023

التوكل على الله والأخذ بالأسباب

(أهلنا في غزّة إذ يتوكّلون على الله)

أ.د. محمد سعيد حوى

وإذ تأتي هذه الخطبة في ظلال قوله تعالى ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾ [الطلاق: 3]

نعم إنه التوكل على الله؛ إذ يترجم عملاً وقلباً وحالاً ولساناً؛ إذ نقول حسبنا الله ونعم الوكيل، فهو كافينا وهو معنا، وهو ولينا وناصرنا ويشفينا ويحمينا ويثبتنا.

وكيف لا نكون في كنف الله ونتوكل عليه؛ وهو بالغ أمره، فكل ما أراده كائن، ولا يكون إلا ما أراد، وجعل الله لكل شيء قدراً؛ أي وقتاً واجلاً وكيفية ، فمهما استعجل ومهما تباطأ عنك أمر؛ فلا يكون أمر إلا في الوقت الذي أراده الله، وكما أراده وفق علمه، ولا يستطيع أحدٌ في الكون أنْ يحدث ما لا يريد الله.

فعلى من تتوكل؛ أتتوكل على العاجز المفتقر؟! أم على الغني العليم الخبير اللطيف المريد القدير، وبيده الخير، ألا تطمئن إلى أمر الله ومراده وقدرته؟!

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: 36].

وقوله تعالى يعلمنا أن نقول : (حسبنا الله ونعم الوكيل) قبل وبعد ومع استنفاذ كل الوسع والطاقة،

حقيقة التوكل

عندما تقول لمحام قدير سلمتك الأوراق والأدلة وتوكلت عليك، ويقول لك نم مطمئنا، وتقول هذا لجراح نطاسي، فيقول لك لا تقلق، فذاك توكل على بشر؛ فكيف على الله!

وإذ نعيش أحوال وجهاد صبر وصمود أهلنا في غزة؛ فلاشك أنَّ هذا الموضوع وثيق الصلة بذاك، وإذ يقدمون دروس التوكل والصبر والرضا والجهاد والإعداد عملياً لا نظرياً.

الطفل يعلمنا حقيقة الصبر والجهاد والتوكل وهو يخرج من تحت الأنقاض شامخاً معتزاً متحدياً راضياً شاكراً.

فأهلنا في غزة أعدوا واجتهدوا، ولم يعتمدوا على أنفسهم؛ بل على الله، وتبرؤا من حولهم، وعاشوا التسليم دائما والرضا ﴿ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: 173] لا حول ولا قوة إلا بالله ... إنا لله... رضينا بالله رباً ... إذا قبلتنا يارب لو رضيت فلا نيأس يارب، وهذا غاية المنى.

وأحداث غزة تعطي دروساً لا حدود لها في مفهوم الجهاد والعزة والتحرير ورفض الهون؛ بل رفع كل همة وتغيير كل تفكير، ونبراساً لشباب اليوم، وإزالة لكل أوهام التطبيع والسلام، وفضح أخلاقيات العدو والغرب، وحقيقة صلابة وصبر المسلم.

ونحن نتحدث عن التوكل ونخجل من ذلك؛ لأننا نتحدث عنه نظرياً.

إذ نتحدث فلا بد من التذكير أن من حقوق الألوهية أن نعتقد ونتيقن أنه لا يخرج عن إرادته سبحانه شيء، وأن ما أراده كان، ولا يكون في ملكه إلا ما أراد، وكل سابق في علمه ولكنه سبحانه منحك إرادة وقوى وعقلاً وعلوماً، وأمرك أن تعمل وتجتهد، وبيّن لك منهج العمل والطريق ومن ثمّ كان التكليف، وكانت المسؤولية، ومن ثمَّ بدء البحث أن تبحث عن واجبك وتكليفك، لا عن ما هو من اختصاص الله.

عدم الفهم أوقع البعض في أخطاء لسنا بصددها؛ وإذ وجب التوكل على الله فكان لابد من الفهم، وخاصة أن هذه الآية (من يتوكل على الله فهو حسبه) جزء من آية، وهي: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾ [الطلاق: 2 – 3]؛ ففهم بعضهم أن التوكل والتقوى يأتيان بالرزق، وعليها يقاس النصر والنجاح في الحياة، والشفاء من المرض، ولكن بعضاً لم يحرر حقيقة التوكل والتقوى.

ومن حقيقة التقوى والتوكل حسن الفهم عن الله، وحُسن العمل وحُسن الإتقان، وحُسن الوفاء بالوعد وحسن الخلق.

<u>ومن ثم وجب بيان حقيقة التوكل:</u>

فالتوكل في حقيقته، هو:

1. امتثال لأمر الله في الأخذ بالأسباب من جهة؛ لأنّه هو الذي أمرَ بذلك.
2. وهو تبرّؤ مِن الأسباب؛ لأنّه هو الذي خلقَ الأسباب.
3. وردّ الفضل إلى الله؛ لأنّه هو الذي أعانكَ على الأخذ بالأسباب.
4. واعتقاد أنّه لا يكون في ملكه إلّا ما أراد.
5. وأنّه أمرهُ (كُن فيكون).
6. وأنّه بمقدارِ ما تكُن مع الله؛ يكون الله مَعَكَ.

<u>لذلكَ انقسم الناس تجاه هذا الفهم:</u>

1. <u>مادّيون</u>؛ لا يعرفون إلّا الأسباب، وينسون المسبب والخالق والمعطي والرازق والمنعِم.
2. <u>ومتعاجزون</u>؛ يسيؤون فهم التوكل فيتركون الأخذ بالأسباب.

3. ومؤمنون حقاً؛ متوكلون ، و إن كانوا يتفاوتون، فهممتوكلون إذ فهموا حقيقة التوكل، وهي معَ ردّ الأمر إلى الله قيامٌ بالواجِبِ، وهو الأخذ بالأسباب.

والأدلة على الأخذ بالأسباب كثيرة:

أدلة القرآن:

1- فأولاً الآية نفسها (ومن يتق الله).

ومِن تقوى الله: إتقان العَمَل، وبَذل الجهد، وامتثال أمرِهِ، وصدق الوعد والنصح في البيع والشراء والعمل، والصنعة، وغيرها مِن الأمور.

2- وقال تعالى: ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [الملك: 15].

3- وإذا نظرنا إلى قوله تعالى: ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِياً ﴾ [مريم: 25]؛ فأمرها بالأخذ بالأسباب، مع أنها في سياق ومعجزة.

4- وإذا نظرنا إلى قصّة ذي القرنين، مع أنّ اللهَ قد فتحَ عليهِ، ومكَّنَ له في الأرض؛ تتكرر مرات ذكر الأسباب لفظاً أو معنى، فقال: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً، فَأَتْبَعَ سَبَباً ﴾ [الكهف: 84 – 85].

5- وإذا نظرنا إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخَيْلِ ﴾ [الأنفال: 60] فهو أمر بالأخذ بالأسباب.

6- وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعاً ﴾ [النساء: 71].

7- وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ القَاعِدِينَ ﴾ [التوبة: 46].

8- وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَناً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد: 4].

9- وحتى في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: 173]؛ نزلت في أعقاب غزوة أحد وحمراء الأسد، وكل ذلك سبقه أخذٌ بالأسباب. إذ كل ما جرى في أحد وحمراء الأسد كان فيه كامل الأخذ بالأسباب.

10- وفي قصة أم موسى أمر بالأخذ بالأسباب: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: 7]. (أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه فياليم)

أخذ بالأسباب لكن تسلم لله وتتبرأ من حولك وترد الفضل لله، ثم ترى عظم تدبير الله، كما حصل ليوسف وللنبي ولإبراهيم؛ إذ ترك أهله في وادٍ لا زرع ولا ماء؛ امتثالاً للأمر، وفي أخذ النبي ﷺ بالأسباب في كل معاركه وهجرته، لكن انظر تدبير الله بعد ذلك.

<u>أما النصوص الحديثية فأكثر من أن تحصر</u>

لذلك جعل العلماء من حقيقة التوحيد مباشرة الأسباب، مع اعتماد القلب على الله؛ لأنّ الله هو خالق الأسباب.

<u>ومِن التوكل في كلّ الأحوال</u>: الدّعاء، والافتقارُ إلى الله، عند وجود الأسباب وعند افتقادها كلها، ولكنك إذا وجدت أسباب وقلت ألجأ فقط إلى الدعاء فأنت خالفت أمر الله وعصيت ولم تفقه التوكل؛ فالتوكل أخذ بالأسباب فرض، مع عدم الاعتماد عليها فرض آخر، ومع التّبرؤ مِن الأسباب ذاتها، وردّ الأمر والفضل والفعل كله لله؛ لذلك أُمِرنا بالتّدواي؛ ولا ينسب لها الشفاء؛ لذلك وجدنا الأنبياء يعملون ويكتبسون من أيديهم.

وهكذا نفهم قوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف: 110]؛ أي بذلوا كل الأسباب ولم يَعُد بمقدورهم أكثر مما فعلوا؛ وهم في كل ذلك متبرؤون من أنفسهم،فلمّا علمَ الله منهم أنهم قاموا بكل شيء يستطيعونه، واستفرغوا وسعهم ، مع كونهم ملتجؤون إلى الله دائماً مفتقرون إليه متبرؤون من حولهم وقوتهم؛ جاءهم النصر.

ومقام التوكل مقام عظيم ،كانحال الأنبياء دائما،بما لا يتسع المقام لبسطه، و ورد فيه ذكر حديث: (يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، هُمُ الَّذِينَ لَا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون) [متفق عليه]، فليس في معناه ترك الأسباب؛ بل حقيقته التوكل مع الأخذ بالأسباب دون الاعتماد على الأسباب.

نموذج أهلنا في غزة:

ولئن كنا نتكلم نظرياً عن التوكل فأمامنا أهلنا في غزة حققوا حقيقة التوكل:

إعداد بكل معنى الإعداد، وأخذ بكل سبب ممكن، وبذل لكل جهد وصبر ومصابرة، ورضا عن الله وتوكل وتسليم ولجوء وتبرؤ من كل حول وطول.

أعدوا إيمانياً؛ فكان منهم أهل المساجد والقيام، وأهل القرآن تلاوةً وتدبراً وعملاً وحفظاً، وأهل العلم.

وعملياً بكل اختصاص يحتاجون إليه؛ فكانت معجزة الصمود والاستبسال، وإنزال النكايات في العدو وحمل فريضة الجهاد.

فههنا تاريخٌ يُكتَب، وحقائق تُسطّر، وصفحةٌ مِن التاريخ، صفحة عزّ وفَخار؛ هي بداية طريق التّحرر والتَّحرير، وسيكون من ورائها أجيالٌ وأجيال تنشأ، وتتربى على هذا الطريق وذاك الجهاد وذا الإعداد.

لا تنظروا إلى الخسائر البشرية والعمرانية، وهم في زمنٍ صعبٍ له استحقاقاته، واستقواء العدو على الحَجر والطّفل والنّساء؛ سقوط أخلاقي، ولا قيمة له في موازين النصر.

إنّها معركة الإرادة والإيمان والأخلاق والصدق، والإعداد والجهد والجهاد، في وجهِ الظّلم والطغيان والاستكبار والعلو.

ولكن واجبنا دائماً أنْ نقول: سبعون يوماً وأهلنا فيما هم فيه، مع كلّ صمودهم واستبسالهم وصبرهم ومصابرتهم، وتوكّلهم على الله، وهم الأكثر تصميماً والأكثر شجاعةً، والأكثر بطولةً، أين أمّتنا؟!

لا يجوز أنْ نطالبهم بأكثر من طاقتهم؛ فكلّ ما حدثَ هو نصرٌ بعدَ نصر، ولا شكّ أنّه سيكون من ورائهم أجيال أكثر بطولةً وأكثر غضباً، وأكثر ثأراً وعزيمةً، وناراً تحرق الأعداء.

لقد شهدنا في التّاريخ مشروعَ الحسين بن علي بن أبي طالب، استُشهِدَ ومن معه؛ لكن بقيتْ قضيّة الانتصار للحق ورفض الظّلم والاستبداد هي المنتصرة، ومع أنّه استُشهِد.

ورأينا شعب الجزائر استُشهدَ منه عبرَ جهادهِ ثُلُث الشّعب، وما كان ليتحرر لولا هذه التّضحيات.

وكذلك كل الشعوب التي رنت إلى الحرية والاستقلال؛ قدّمت كل التضحيات، من عمر المختار وأهل ليبيا، إلى أهل المغرب، والشّام، والعراق.

إنّه شعبٌ يصرّ على الحياة ، لكن بعزة وكرامة، وفهموا معنى الحياة، ومعنى الأخذ بالأسباب، ومعنى التوكل على الله، وسطروها دروساً عملية؛ فالقيمة الأكبر للإيمان والرّوح والحق والخُلق؛ وإلّا فالكل يموت، ولكن كيف تموت؟ وكلّ في تقدير الله له قدره، لكن كيف تجتهد أن تقوم بأعظم الواجبات على أعظم الأوجه لتكتب لك أعظم الخاتمة، ليكون استعلاء الإيمان، ليكون ممن قيل فيهم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُداًّ ﴾ [مريم: 96]، لتكون ممن يذكر في الملأ الأعلى.

ونحن نعلم قول الله تعالى: ﴿ لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي البِلادِ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المِهَادُ ﴾ [آل عمران: 196 – 197]، موعد الفصل ليس في دار الدنيا الضيقة، لكن في دار الآخرة.

حدّثنا القرآن عن فئات قدّموا أرواحهم لله، دون أن يذكر أنه قد تمّ لهم تمكين في الأرض؛ كقصّة الأخدود؛ لنعلم أنّ القضية قضية علاقتنا مع الله في الآخرة، والقيام بواجبنا حبّاً لله، وانتصاراً للحق.

وعن فئات قدموا أرواحهم لله، وكان لهم بعض نجاح وتمكين.

وكان آخرون مكنوا كلّ التّمكين؛ لنعلمَ أنّ الواجب هو الواجب، التصدي للباطل، والتّحرر من الدّنيا، والتطلع إلى الله، وإعلاء كلمة الحق، لا ننظر إلى جزاء دنيوي، وأنّنا نتعامل مع الله في هذه الدنيا؛ فإنْ جاء فبها ونعمت؛ إنّها معركة الإيمان مَعَ الكفر، والحق مَعَ الباطل، والعَدل ضد الظلم؛ ليست مجرد خلافات سياسية ولا اقتصادية، وليس مجرد مكاسب دنيوية؛ وإلّا فحُلّت.

ومن ههنا فَهِمَ أهلنا في غزة حقيقةَ الصّبر وحقيقة التّوكل، علماً وعَملاً، جهاد بعد الإعداد واستعداد للشهادة ولأي أمر يريده الله، أعدوا وتوكلوا حقيقةً وتطبيقاً؛ فلنأخذ الدّروس والعِبَر.

نعم إن أحداث غزة تعطي دروساً لا حدود لها في مفهوم الجهاد والعزة والتحرير ورفض الهون، بل رفع كل همة وتغيير كل تفكير، ونبراساً لشباب اليوم، وإزالة لكل أوهام التطبيع والسلام وفضح أخلاقيات العدو والغرب، وحقيقة صلابة وصبر المسلم.

إن الدماء الزكية الطاهرة النورانية لن تضيع سدى، ذلك وعد الله، (والشهداء لهم أجرهم ونورهم) (والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم)

نعم ستزهر الروابي والأمل والنور والعزة والكرامة والحرية والكرامة والحق والعدل.